بين وعد الله تبارك وتعالى ووعد البشر

(خطبة الجمعة للشّيخ عبد الحق شطّاب بمسجد الشّيخ أحمد حفيظ رحمه الله

يوم 24 جمادى الأولى 1434هـ الموافق لـ 5 أفريل 2013م)

الخطبة الأولى:

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفُسِنا ومن سيِّئات أعمالِنا، من يهدِه الله فهو المُهتد ومن يُضلل فلن تجِد له وليًّا مرشدًا،

أشهد أن لا إله إلاّ الله وحدَه لا شريك له وأشهد أنّ مُحمّدا عبدُه ورسوله،

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿ 01 ﴾ " سورة النّساء.

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿ 102 ﴾ " سورة آل عمران.

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴿ 70 ﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿ 71 ﴾ " سورة الأحزاب.

ألا وإنّ أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمّدٍ – صلّى الله عليه وآله وسلّم –،

وشرّ الأمور مُحدثاتها وكلّ محدثةٍ بدعة وكلّ بدعةٍ ضلالة أعاذنا الله من الزّيغ والضّلال،

معاشر الإخوة الكرام، في هذه الجمعة المباركة، نتناول موضوع:

بين وعد الله تبارك وتعالى ووعد البشر

معاشر الإخوة الكرام،

قال تعالى:

" وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿ 55 ﴾ " سورة النّور.

قال أهل التّفسير: رُوِيَ أنّ بعض أصحاب النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم شكا إليه ما هم فيه من العدو وشدّة الخوف، وما يلقون من الأذى، فنزلت هذه الآية بالوعد الجميل لهم، فأنجزه الله وملّكهم ما وعدهم، وأظهرهم على عدوّهم.

قال صاحب التّحرير والتّنوير الشّيخ الطّاهر بن عاشور رحمه الله:

(قد كان المسلمون واثقين بالأمن، ولكنّ الله قدّم على وعدهم بالأمن أن وعدهم بالإستخلاف في الأرض، وتمكين الدّين تنبيهًا لهم بأنّ سنّة الله أنّه لا تأمن أمّةٌ بأس غيرها حتّى تكون قويّةً مكينةً مهيمنةً على أصقاعها، وفي ذلك إيماءٌ إلى التّهيّؤ لتحصيل أسبابه مع ضمان توفيق الله لهم ، وأن مِلاك ذلك هو طاعة الله ورسوله).

والله تعالى وعد نبيّه وأنجز ما وعده به، فدانت له شبه الجزيرة العربيّة حين استوفى أصحاب رسول الله شروط وعد الله بالإيمان السّليم والعمل الصّالح القويم.

" وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ 6 ﴾ " سورة الرّوم.

هذا وعد الله، ولكن حكاية البشر أمرٌ آخرٌ.

ولقد أخبر الله تعالى عن آدم عليه السّلام وقصّة تفريطه في العهد، وأن ذلك من وسوسة الشّيطان له.

قال تعالى:

" وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿ 115 ﴾ " سورة طه.

فماذا كان مصير آدم عليه السّلام بعد تفريطه في العهد:

" فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿ 36 ﴾ " سورة البقرة.

فأُخْرِجَ من الجنّة.

إخوتي الكرام،

أنت لمّا تَعِدُ إنسانًا له قيمة عندك ثمّ تُخلِف أو تُفرِّط في قضاء ما وعدته به، كيف يكون حالك معه؟، تتحرّج، تحتار كيف تواجهه، تحاول أن تتجنّبه، واعلم أنّك إذا خسرت ثقة النّاس خسرت رأس مال تعامل النّاس معك مستقبلاً.

فما بالك حين تعد المولى تبارك وتعالى بأنّك سوف تتوقّف عن المعصية الفلانيّة ثمّ سرعان ما تعود إليها، حين تعد الله تعالى أن لا تفرّط في الواجبات ثمّ تصلّي شهرًا وتترك الصّلاة إحدى عشر شهرًا.

أنت تعد عليمًا، تعد بصيرًا، تعد كريمًا، تعد توّابًا، تعد رحيمًا، تعد جبّارًا، تعد قهّارًا.

إخوتي الكرام،

النّفوس الكبيرة إذا وعدت أنجزت، وإذا قرّرت نفّذت، وإذا عزمت توكّلت.

أمّا النّفوس الضّعيفة الوضيعة إذا وعدت أخلفت، وإذا قرّرت تردّدت، وإذا عزمت سرعان ما خارت وانقلبت.

النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان في أحلك الظّروف إذا وعد أنجز وعده، شاور صلّى الله عليه وسلّم أصحابه يوم أُحُدٍ، فأشاروا عليه بالخروج، فلبس لامّته وأخذ سيفه، فلمّا خرج عليهم، قالوا: (**لعلّنا أكرهناك يا رسول الله ؟ لو بقيت في المدينة**)، قال: (**ما كان لنبيٍّ إذا لبس لامته أن ينزعها حتّى يقضيَ الله بينه وبين عدوّه**).

التّردّد فسادٌ في الرّأي، برودة هِمَّةٍ، شتات جهدٍ، إخفاقٌ في السّير، مرضٌ لا دواء له إلاّ العزم والحزم والجزم والثّبات.

قرّرتَ أن تتوب توكّل على الله، قرّرت ترك قرناء السّوء لاستقامة حالك، اقطع الصّلة بهم، انتهى زمن التّردّد، وقفت على خيانة زوجك، اعزم على الطلاق لا تتردّد، زوجٌ سِكِّيرٌ عربيدٌ ديوثٌ، اطلبي الخُلْعَ لا تتردّدي.

ما الّذي أهلك بني إسرائيل هو نقضهم للعهد وعدم الوفاء به، نقضوا العهد مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وظاهروا المشركين على حرب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في يوم الأحزاب، وغير ذلك من همّهم بقتله وسبّه، ونسوا حظًّا ممّا ذُكِّرُوا به، أي نسوا عهد الله الّذي أخذه الأنبياء عليهم من الإيمان بمحمّدٍ صلّى الله عليه وسلّم.

قال تعالى في وصفهم:

" فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ . . . ﴿ 13 ﴾ " سورة المائدة.

فنقض المواثيق ونسيان العهود كانت نتيجته لعن الله تعالى لهم، وطردهم من رحمته وخسارة آخرتهم.

قال أهل التّزكية استوى النّاس في الرّخاء، فإذا نزل البلاء تباينوا، أي ظهر كلٌّ على حقيقته عند المحن، ومن النّاس من عنده سياسة فرعون حالة الشّدّة يرجع إلى الله:

" . . . حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿ 90 ﴾ " سورة يونس.

هناك من في الشّدّة يلجأ إلى الله ويعد ويعد، فإذا ارتفعت البلوى وتحقّق الأمنية، نكص على عقبيه، كقوله تعالى:

" وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿ 75 ﴾ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿ 76 ﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿ 77 ﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿ 78 ﴾ " سورة التّوبة.

كم من واحدٍ يقول لك: (**هذا رمضان سأترك الخمرة، سأترك المخدّرات إلى غير رجعةٍ، كأتجنّب رفقاء السّوء**)، ثمّ لا يَفِ بوعده الّذي قطعه.

كم من واحدةٍ تقول: (**لو نجحت في الباكالوريا سألتزم، سأرتدي لباس العفّة والطّهارة، سأتوب من العلاقات المشبوهة**).

وتقول: (**لو يشفيني الله من مرضي، أو يشفي ولدي، أو يرزقني ولدًا، لأتوبنّ ولأفعلنّ كذا وكذا**)، ثم يحصل مبتغاها وتتحقّق أمنيتها، فتتغيّر، ويُدبر، ويتولّى عن وعوده وعهوده وعزيمته، بئس الوعد هذا.

أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه، إنّه هو الغفور الرّحيم.

الخطبة الثّانية:

الحمد لله حمدًا كثيرًا مباركًا، كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، أحمده على نعمه، وأشكره على فضله وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله،

الله جلّ جلاله إذا وعد أعطى، بل من رحمة الله تعالى متى أخلص المؤمن النّيّة، وصدق في سريرته، فإن الله تعالى يعطيه أجر العاملين، ولو لم يعمل أو لم يتيسّر له ذلك.

روى مسلم عن أبي عبد الله جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: { **كنّا مع النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في غزاة، فقال: (إنّ بالمدينة لرجالاً ما سِرتُمْ مسيرًا، ولا قطعتم واديًا، إلاّ كانوا معكم، حبسهم العذر) }**.

وفي روايةٍ: (**إلاّ شركوكم الأجر**).

فالنّيّة الصّادقة والإخلاص والعزم على عملٍ صالحٍ، يسوق الله تعالى لصاحبه أجره كاملاً إذا حال دونه القدر.

ولذلك فليحرص المسلم على صدق النّيات في التّعامل مع التّكاليف الرّبّانيّة، ويسأل التّوفيق من الحكيم الخبير.

وثبت في صحيح ابن ماجة للألباني، من حديث أبي كبشة عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قال:

{ **مثل هذه الأمّة كمثل أربعة نَفَرٍ:**

*** رجلٌ آتاه الله مالاً وعِلمًا، فهو يعمل بعلمه في ماله، ينفقه في حقّه.**

*** ورجلٌ آتاه الله عِلمًا ولم يُؤتِه مالاً، فهو يقول: (لو كان لي مثل هذا، عملت فيه مثل الّذي يعمل)، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (فهما في الأجر سواءٌ).**

*** ورجلٌ آتاه الله مالاً ولم يُؤتِه علمًا، فهو يخبط في ماله، ينفقه في غير حقّه.**

*** ورجلٌ لم يؤته الله علمًا ولا مالاً، فهو يقول: (لو كان لي مثل هذا، عملت فيه مثل الّذي يعمل)، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (فهما في الوزر سواءٌ) }**.

ولقد علّمنا قدوتنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الوفاء في كلّ أحوالنا.

اشتدّ الجوع على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فانطلقوا إلى بيت أبي الهيثم بن التّيّهان الأنصاري رضي الله عنه، وكان رجلاً غنيًّا، فأطعمهم طعامًا شهيًّا، فوعده النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أن يعطيه خادمًا عندما تأتي الغنائم والسّبي، ومرّت الأيّام وجاء ثلاثةٌ من الأسرى للرّسول صلّى الله عليه وسلّم.

فأعطى إثنين منهم المسلمين فاتّخذوهما كخادمَيْن وبقي واحدٌ.

فجاءت فاطمة بنت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم تطلب خادمًا لكي يساعدها، ويخفّف عنها متاعب العمل، فرفض صلّى الله عليه وسلّم أن يمنحه لها، لأنّه وعد به أبا الهيثم رضي الله عنه من قبل، وقال: (كيف بموعدي لأبي الهيثم).

وآثره بالخادم على ابنته، لأنّه صلّى الله عليه وسلّم كان حريصًا على الوفاء بالوعد والعهد.

والصّحابة رضي الله عنهم كانوا يوفون بالعهود، ولو قطعه غيرهم قبلهم.

ذات يومٍ قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لجابر بن عبد الله رضي الله عنه: (لو قد جاء مال البحرين (أي الزّكاة الّتي تُجمع من البحرين)، أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا) ، ومات الرّسول صلّى الله عليه وسلّم قبل أن تصل أموال الزّكاة من البحرين، فلمّا تولّى أبو بكر الصّديق رضي الله عنه الخلافة وجاءت الأموال من البحرين، أمر رجلاً أن ينادي: (من كان الرّسول صلّى الله عليه وسلّم قد وعده بشيءٍ، فليأتِ).

فذهب جابر رضي الله عنه إليه، وأخبره بوعد الرّسول صلّى الله عليه وسلّم له، أن يعطيه من مال البحرين إذا جاء (ثلاث مرّاتٍ)، فأعطاه الخليفة كيسًا من المال، فعدّها جابر رضي الله عنه فهي خمسمائة، فأعطاه الخليفة مثلها مرّتيْن وفاءًا بوعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

اللّهمّ أهدِنا فيمن هديْت وعافِنا فيمن عافيْت وقِنا شرّ ما قضيْت،
اللّهمّ لا تَدَعْ لنا في مَقامِنا هذا ذنبًا إلاّ غفرته، ولا دَيْـــنـــًا إلاّ قضيْته، ولا مريضًا إلاّ شفيْته، ولا حاجةً من حوائج الدّنيا أو الآخرة لك فيها رضًا ولنا فيها صلاحاً إلاّ قَضيْتها لنا ويَسَّرتَها لنا، يا أرحم الرّاحمين،
اللّهم إنّا نسألك فِعل الخَيْرات، وتَرْك المنكرات، وحُبّ المساكين، وإذا أردت بْقَوْمٍ فِتنةً فتَوَفَّنا غير فاتنين ولامفتونين،
اللّهم إنّا نسألك حُبَّك وحبّ من أحبّك وحبّ كلّ عمل يُقرّبنا إلى حبّك،
اللّهم اجعل خير أعمالنا خواتمها، وخير أيّامنا يوم لقاك،
اللّهم لا تأخذنا على حين غِرّة، ولا على حين غفلة،
اللّهم إنّك عفوٌّ تحبّ العفو فاعف عنّا، اللّهم إنّك عفوّ تحبّ العفو فاعف عنّا،
اللّهم انصر الإسلام والمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها واخذُل ودمِّر أعداء الدّين في مشارق الأرض ومغاربها،
اللّهم انصر المظلومين في سورية وفي سائر بلاد المسلمين،
اللّهم انصر المظلومين في سورية وفي سائر بلاد المسلمين،
إنّك على كل شيء قدير وبالإجابة جدير وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين،
سبحانك اللّهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلاّ أنت نستغفرك ونتوب إليك.